جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
المجلة العلمية

الحق المبين في مصطلح التفنن عند المفسرين
دراسة نقدية

إعداد

د/ أحمد ياسين عبد المجيد عبيد

مدرس التفسير وعلوم القرآن
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد الحادي والعشرون إصدار ديسمبر ٢٠٢٤م)

الحق المبين في مصطلح التفنن عند المفسرين دراسة نقدية

أحمد ياسين عبد المجيد عبيد

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، جامعة الأزهر، قنا، مصر

البريد الإلكتروني: AhmedEbid.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الحمد لله الذي فاق كلامه كل كلام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله الذي هدانا به المولى إلى سبل السلام، وبعد: فإن هذا البحث الذي وسمته بـ: (الحق المبين في مصطلح التفنن عند المفسرين دراسة نقدية)، وقد استخدمت في هذا البحث المنهج الاستقرائي والمنهج النقدي لمصطلح مهم دار كثيراً بين علماء التفسير ألا وهو: التفنن، وعلى الرغم مما قام به المفسرون من خدمة لكتاب الله تعالى، إلا أن بعض التراكيب ومخالفة الألفاظ قد خفيت على بعضهم وجاء فيها التوجيه بالجواب العام وهو التفنن، وجاء هذا البحث في مقدمة بينت فيها أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته، وتمهيد تحدثت فيه عن تعريف التفنن، والمصطلحات القريبة منه، وحمل الفصل الأول عنوان: الدراسة النظرية لهذا المصطلح مشتملاً على الأنواع، وأسباب وقوعه في القرآن، وأسباب لجوء المفسرين إليه، وأقوال العلماء فيه قبولاً ورداً، ثم كان الحديث عن الفصل الثاني والذي حمل عنوان: الدراسة النقدية لمصطلح التفنن عند بعض المفسرين، تضمن ذكر هذا المصطلح ودراسته عند بعض المفسرين وهم: الزمخشري، ابن جماعة، أبي حيان، زكريا الأنصاري، الخطيب الشربيني، الألوسي، الطاهر بن عاشور، ثم النتائج والتي كان من أهمها أنه لابد من البحث عن سر التفنن في القرآن الكريم، وأن القرآن قد جاء كل لفظ فيه في موضعه المناسب، وأن القول به مجرداً دون البحث عن سرة حيله يلجأ إليها العاجز عن الفهم، والتوصيات التي انتهى إليها البحث بضرورة دراسة كل مفسر على حدة، والتنقيب عن مثل هذه المصطلحات، ودراستها دراسة وافية، كما تضمن البحث فهرس للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

الكلمات المفتاحية: مصطلح التفنن، دراسة نقدية، الحق المبين، المفسرون، كتاب الله.

Al-Haq Al-Mubeen fi Mustalahat Al-Tafannun 'Inda Al-Mufassireen: Dirasah Naqdiyah

Ahmed Yassin Abdul Majeed Obeid
Department of Tafsir and Quranic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Al-Azhar University, Qena, Egypt
Email: AhmedEbid.4119@azhar.edu.eg

Abstract:

Praise be to Allah, whose words surpass all others, and blessings and peace be upon the best of mankind. I bear witness that there is no god but Allah, alone, without partner, and I bear witness that our Master and Prophet Muhammad is the servant of Allah and His Messenger, who has guided us to the paths of peace. After that: This research, titled "The Clear Truth in the Concept of Artistry Among Interpreters: A Critical Study," employs the inductive and critical approach to a significant term widely discussed among scholars of interpretation, namely: artistry. Despite the service rendered by interpreters to the Book of Allah Almighty, some linguistic structures and deviations in wording have escaped some of them, leading to the general direction of artistry.

This research begins with an introduction that outlines the reasons for choosing the topic, previous studies, research methodology and outline, and a preface discussing the definition of artistry, related terminologies, and the first chapter entitled: "The Theoretical Study of this Term," which includes types, reasons for its occurrence in the Quran, reasons for interpreters resorting to it, and the acceptance and rejection of scholars' opinions on it. Then comes the discussion of the second chapter titled: "The Critical Study of the Term 'Artistry' Among Some Interpreters," which mentions the term and its study among some interpreters, namely: Az-Zamakhshari, Ibn Jumay', Abu Hayyan, Zakariya al-Ansari, Al-Khattabi Al-Sharbini, Al-Alusi, At-Tahir bin Ashur. The conclusions, among the most

important, include the necessity of searching for the secret of artistry in the Quran, noting that every word in it is placed in its appropriate context, and that merely stating it without delving into its secrets is a resort for those incapable of understanding. The research recommends studying each interpreter individually, exploring such terms, and thoroughly studying them, as well as providing a bibliography and index of subjects.

Keywords**: Mustalahat Al-Tafannun, Dirasah Naqdiyah, Al-Haq Al-Mubeen, Al-Mufassireen, Book Of Allah.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي فاق كلامه كل كلام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله الذي هدانا به المولى إلى سبل السلام، وبعد، فإن الألفاظ والأساليب الواردة في القرآن الكريم سعى في بيانها وتدبرها علماء التفسير سعياً حثيثاً، إلا أن بعضهم رحمهم الله تعالى قد عجزت أفهامهم عن إدراك سر التغاير بين الألفاظ والتراكيب، فجاءت بعض توجيهاتهم بمصطلحات لا تليق بكلام الله ﷻ، ومن هذه المصطلحات مصطلح "التفنن"، والذي تناقله العلماء جيلاً بعد جيل بحجة أن هذا قد ورد على أساليب العرب، فجاءت هذه الدراسة الموسومة بـ: الحق المبين في مصطلح التفنن عند المفسرين دراسة نقدية لتفند أقوال بعض المفسرين حول هذا المصطلح وتبين أنه لم يرد إلا لحكمة من قائل هذا الكلام العجيب وهو الحق سبحانه وتعالى.

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: امتثال أمر الله ﷻ القائل: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩] فإن نقد أقوال المفسرين لمصطلح التفنن، وبيان سره مما أمر به الله تعالى.

ثانياً: بيان الأسرار القرآنية سعياً وراء إثبات أن كل لفظ في القرآن قد جاء في موضعه المناسب.

ثالثاً: كثرة ورود هذا المصطلح في كتب التفسير.

الدراسات السابقة:

تناول الباحثون هذا المصطلح من خلال دراسات خاصة تتعلق ببعض المفسرين مثل: التفنن في أساليب القرآن عند المفسرين: دراسة تفسيرية تحليلية نقدية ابن عاشور نموذجاً، وهي رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة العلوم الإسلامية بالأردن ٢٠١٧، وبحث نشرته المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، التابعة لجامعة مؤتة بعنوان: التفنن مخرجاً بلاغياً عند ابن عاشور في تفسيره دراسة نقدية في إشكالية المفهوم وبدائله

المنهجية للدكتور/ فايز مد الله سلمان الذنيبات، إضافة إلى بحث في مجلة الدراسات اللغوية والأدبية التابعة لكلية الآداب في جامعة الخرطوم ٢٠٢٠ للباحث: صديق مصطفى الريح، وهو بحث يتناول فقط دواعي التفنن، وله أيضاً بحث بعنوان: ظاهرة التفنن في النص القرآني نشر في مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية ٢٠١٧م، وهما مما يؤكد على التفنن، أمّا هذا البحث فهو يسلط الضوء على هذا المصطلح وأسبابه عند العرب، وأسباب لجوء المفسرين إليه، وهذا ما خلت منه البحوث السابقة، إضافة إلى أنها عرضت نماذج مختلفة لبعض علماء التفسير، وبيان سر التفنن لبعض الألفاظ والتراكيب.

منهج البحث:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي(١)، الوصفي(٢)، عن طريق تتبع أقوال المفسرين تبعاً لاختلاف عصورهم لتكوين صورة دقيقة عن هذا المصطلح واستخدامه عند المفسرين، والمنهج النقدي الذي يفند أقوال بعض المفسرين حول استخدام هذا المصطلح، كما اعتمدت على المنهج المقارن عن طريق عرض أقوال العلماء واختيار الأقرب للصواب منها.

وقد قمت في الدراسة النقدية: بعرض نموذج واحد لما ذكره بعض المفسرين حول تغاير الألفاظ والأساليب القرآنية بعلة التفنن، وقمت بدراسة قول المفسر، وبيان سر هذا التغاير عن طريق أقوال العلماء الذين اهتدوا إلى سر هذا التفنن، واختيار القول الراجح، وذكر سر اختصاص كل موضع بما ذكُر فيه.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة، تحدثت في المقدمة عن أسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة ومنهج البحث، ثم جاء التمهيد لأتعرض فيه لمعنى التفنن في اللغة والاصطلاح، والمصطلحات القريبة منه، والفرق

---

(١) المنهج الاستقرائي هو: عملية ملاحظة الظواهر وتجميع البيانات عنها للتوصل إلى مبادئ عامة وعلاقات كلية. انظر: مناهج البحث العلمي للدكتور/ محمد سرحان (ص: ٧٣)

(٢) المنهج الوصفي هو: محاولة الوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية لعناصر مشكلة أو ظاهرة قائمة للوصول إلى فهم أفضل وأدق، أو وضع السياسات والإجراءات المستقبلية الخاصة بها. انظر: المرجع السابق (ص:٤٦)

بينهما، ثم جاء الفصل الأول ليحمل عنوان: الدراسة النظرية لمصطلح التفنن تناولت فيه أنواعه، وأسباب وقوعه في القرآن، وأسباب لجوء المفسرين له، وأقوال العلماء فيه من حيث القبول والرد، والفصل الثاني يحمل عنوان: الدراسة النقدية لمصطلح التفنن عند بعض المفسرين، وقد تناول هذا الفصل عدة مباحث لبعض المفسرين وهم: الزمخشري، ابن جماعة، أبو حيان، زكريا الأنصاري، الخطيب الشربيني، الألوسي، الطاهر بن عاشور، ثم خاتمة البحث بينت فيها النتائج، وذيلته بفهرس المصادر والموضوعات.

التمهيد

معنى التفنن

التفنن في اللغة: تعود كلمة التفنن في المعاجم العربية إلى الجذر اللغوي (فنن)، و"الفَنُّ: واحد الفنون، وهي الأنواع، والأفانينُ: الأساليبُ، وهي أجناس الكلام وطرقه، ورجلٌ مُتَفَنِّنٌ أي: ذو فنونٍ، وافْتَنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته، إذا جاء بالأفانين، والفنن جمعه أفنان، ثم أفانين، وهي الاغصان، والتفنين: التخليط يقال: ثوبٌ فيه تَفْنينٌ، إذا كانت فيه طرائقُ ليست من جنسه، ورجلٌ مِفَنٌّ: يأتي بالعجائب، وامرأة مفنة"(١)، "وافتنَّ أخذ في فنون من القول والفنون الأَخْلاط من الناس وإن المجلس ليجمع فنونًا من الناس أي: ناسًا ليسوا من قبيلة واحدة، وتَفَنَّنَ اضْطَرَبَ كالفَنَنِ"(٢)، فالتفنن من خلال ما سبق فيه دلالة على التنوع والأغصان والأعاجيب والاضطراب والاختلاط.

التفنن في الاصطلاح: عرفه الطاهر بن عاشور بتعريفين تلميحاً وتصريحاً لما يوجد منه في القرآن فقال عنه هو:" ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة"(٣)، وقال في الموضع الآخر:" بداعة تنقلاته من فن إلى فن"(٤) ففي الموضع الأول كان الحديث عن إعجاز القرآن الذي يشمل جميع القرآن، وفي الموضع الثاني عرفه عندما تحدث عن أساليب القرآن، وظهر من كلام الشيخ الترابط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتفنن الذي يدل على سعة التصرف والتنوع في الألفاظ والأساليب.

ويمكن تعريف التفنن بأنه: خروج الألفاظ والأساليب على عدة أنواع للدلالة على تمكن المتحدث من اللغة.

المصطلحات القريبة منه، والفرق بينهما: من المصطلحات القريبة من هذه الدراسة هو مصطلح" الافتنان" وهو علم من علوم البديع في البلاغة عرفّه ابن أبي الأصبع بقوله:" أن يفتن المتكلم فيأتي بفنين متضادين من فنون الكلام في بيت واحد أو

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢١٧٧)

(٢) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١٠/ ٤٦٢)

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٠٤)

(٤) المصدر السابق (١/ ١١٦)

جملة واحدة مثل النسيب والحماسة والهجاء والهناء والعزاء، والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً، ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢] فجمع هذا الكلام بين الوعد والوعيد، ومما جمع فيه بين التعزية والفخر قوله سبحانه: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن: ٢٦، ٢٧] "[١]، وبالنظر إلى المصطلحين فإنه لا فرق بينهما من حيث اللغة والاشتقاق فإذا قيل:" الرجل يُفَنَّن الكلام أي: يشتق في فَنَّ بعد فَنَّ " (يتفرع) ومنه: "التفنُّن والافتنان في الحديث والخطبة"[٢]، ويظهر أنه لا فرق بينهما من خلال بعض كلام المفسرين كما نقل أبو السعود عن أبي علي قوله:" إذا ذكرت صفات للمدح وخولف في بعضها الإعرابُ فقد خولف للافتنان أي: للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجِدّ في الإصغاء"[٣] وأرى–والله أعلم–أن التفنن أعم من الافتنان؛ لأنه يتناول الألفاظ والتغاير فيما بينها، والأساليب بين إيجاز وإطناب، أو تقديم وتأخير، أو ذِكر وحذف كما سيأتي في البحث، بينما الافتنان يتناول تعاقب فنين مختلفين، ويدل على ذلك أن صاحب المفاتيح ذكرهما في موضعين من كتابه، فنقل تعريف الافتنان السابق كما ذكره ابن أبي الأصبع أولاً[٤]، ثم عرف التفنن بأنه:" التوسع في التعبير، والتنوع في الأساليب، بالعدول من أسلوب لآخر، تطرية للكلام وتنشيطاً للسامع، وإبرازاً للقدرة على التفنن"[٥]، فالافتنان والتفنن من أساليب العرب، إلا أن الثاني أعم من الأول.

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع (ص: ٥٨٨)
(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل د. محمد حسن حسن جبل (٣/ ١٧١٦)
(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ٢٩)
(٤) مفاتيح التفسير للدكتور/ أحمد سعد الخطيب (١٥٣/١)
(٥) مفاتيح التفسير للدكتور/ أحمد سعد الخطيب (٣٧٢/١)

الفصل الأول

الدراسة النظرية لمصطلح التفنن

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: أنواع التفنن

المبحث الثاني: أسباب وقوع التفنن في القرآن

المبحث الثالث: أسباب لجوء المفسرين لهذا المصطلح

المبحث الرابع: مصطلح التفنن بين القبول والرد

المبحث الأول

أنواع التفنن

لا تنحصر أنواع التفنن القرآني تحت عد، فقد أطلق المفسرون هذا المصطلح على أغلب أساليب القرآن الكريم، ولكثرتها وتعددها نشير إشارة إليها مما ذكره المفسرون، فقد عدد ابن عاشور في تفسيره أنواع هذا المصطلح وطرق التعرف عليه في آيات القرآن الكريم فقال:" ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض[١] والتنظير[٢] والتذليل[٣] والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنباً لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات[٤] المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو في القرآن كثير".[٥]

ومن خلال ما سبق من كلام الشيخ تبين أن التفنن هو تسمية الطاهر بن عاشور، وهذا مما لا يمكن قبوله؛ لأنه وارد على لسان من قبله من المفسرين كالإمام الزمخشري،

---

(١) الجملة المعترضة: هي التي تتوسط أجزاء الجملة مستقلة لتقرر معنى يتعلق بها أو بأحد أجزائها. انظر: أمالي ابن الحاجب (٢/ ٦٨٥)

(٢) التنظير" وهو النظر بين كلامين متفقين في المعنى أو مختلفين أيهما أفضل؟ انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السُّبْكي (٢/ ٣١٢)

(٣) وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٣/ ٢٠٥)

(٤) وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. انظر: البديع في البديع لابن المعتز (ص: ١٥٢)

(٥) التحرير والتنوير (١/ ١١٦)

كما ظهر أيضاً أن التفنن يكون في أساليب الخطاب التي تؤكد الكلام وتقويه، كما يكون في الألفاظ التي تبدو متقاربة المعنى، وأعظم أساليبه الالتفات.

كما يعبر المفسرون بهذا المصطلح عن تنوع ألفاظ وأساليب القصص القرآني فيقول زين الدين الرازي:" حكى الله تعالى ذلك عنهم باللغة العربية مراراً، لحكمة اقتضت التكرار والإعادة، فمرة حكاه مطابقاً للفظهم في الترجمة رعاية للفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جرياً على عادة العرب في التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه لئلا يمل إذا تمحض تكراره".(١)

كذلك من أنواعه التقديم والتأخير بين الألفاظ القرآنية كما يقول السيوطي:" تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع لقصد التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب، كما في قوله: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} [البقرة: ٥٨] وقوله: {وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف: ١٦١]".(٢)

كما يبرز هذا المصطلح عند العلماء في المغايرة بين الألفاظ القرآنية من الرفع إلى النصب، فقد قال الشيخ أبو شهبة في سر العدول إلى لفظ (والصابرين) بدلاً من (الصابرون) في قوله تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} [البقرة: ١٧٧] "قوله: وَالصَّابِرِينَ فهو منصوب على المدح يعني وأمدح الصابرين، وإنما غاير في الأسلوب، ولم يأت على نسق ما سبقه، تبيانا لفضيلة الصبر، وبيان منزلته من البر، فكأن الله سبحانه يبين لنا أنه وإن جاء في الذكر آخراً فهو بمكان من الفضيلة والمثوبة الحسنة، وقد قدمت عن أئمة اللغة والنحو ما للعرب من التفنن في النصب على الاختصاص، وغير خفي ما لتغير الأسلوب، والتفنن في الخطاب من أثر جليل من الناحية النفسية، لأنه يجذب الانتباه، ويوقظ الشعور"(٣)، أمّا من جعل التفنن في الالتفات فقط(٤) فقد قصره على نوع من أنواعه التي لا تدخل تحت حصر.

---

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل لزين الدين الرازي (ص: ١٤٤)

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/ ١٢٨)

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة (ص: ٣٧٦)

(٤) كما قال الباقولي:" هذا باب ما جاء في التنزيل من تفنن الخطاب والانتقال من الغيبة إلى الخطاب". انظر: إعراب القرآن للباقولي (٣/ ٩٢٣)

المبحث الثاني

أسباب وقوع التفنن في القرآن

تحدث العلماء عن الأسباب التي من أجلها تنوعت الألفاظ والأساليب في القرآن على النحو الآتي:

أولاً: التفنن من أساليب العرب: وقد نزل القرآن على أساليبهم وعلى وِفق ما يتحدثون به، فقد قال ابن الزبير في توجيهه لبعض الآيات المتشابهة:" جرى ذلك على مسلك العرب وتفننها في كلامها وتصرفها إذا أطالت لداع موجب وفصلت أو أوجزت لمقتضى من المعنى وأجملت "(١).

ثانياً: تجنب التكرار: فراعى القرآن هذه المسألة فخولف بين الألفاظ والأساليب لئلا يقع في كلام الرحمن التكرار الذي لا فائدة منه، وهذا السبب من الأجوبة التي ذكرها ابن جماعة في توجيهه لبعض المتشابه وعلل ذلك بأنه "ليتفنن في الخطاب لكراهة التكرار".(٢)

ثالثاً: جذب القلوب والأسماع: فإن التوسع في الألفاظ والأساليب يقود القلوب والأسماع إلى التأمل والتدبر في هذا الكلام الذي لا يشابهه كلام، وهذا ما بيّنه الإمام الزركشي في أسباب التفنن عامة والالتفات خاصة بقوله:" اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع واستجلاب صفائه واتساع مجاري الكلام".(٣)

رابعاً: الدعوة للتعلق بالقرآن الكريم في كل زمان ومكان: فأساليب التفنن في القرآن الكريم من أهم الأسباب التي تجعل المهتمين بهذا الكتاب الحكيم على صلة وثيقة به، وأن تديم العقول البحث عن أسرار الألفاظ والتراكيب" وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [المزمل: ٢٠]".(٤)

خامساً: إعلان التحدي العام: فيثبت الفصيح مكانته بين الناس عامة وأهل العلم خاصة بقدرته على تنويع خطاباته، وتغيّر أسلوبه من الإيجاز إلى الإطناب أو من تغاير الألفاظ، وما ذلك إلا لمقدرته اللغوية وتمكنه القوي من لغة القرآن، ولما كان كلام الله يعلو على كل كلام ورد على هذه الأساليب من التفنن والتنوع ليعلن التحدي العام لجميع البشر بل وجميع المخلوقات، وما يزيده هذا التفنن إلا روعة ورونقاً لعدم اختلال ألفاظه مع كثرة أساليبه، فمهما حاول الإنس والجن أن يثبتوا فصاحتهم وبلاغتهم فستجد في كلامهم ما يدل على التناقض والاختلاف، أمّا الوحي المحفوظ فيصدق فيه قول من أنزله: { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي (٢/ ٤٦٩)

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ص: ٢٧١)

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣/ ٣٢٥)

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١١٦)

المبحث الثالث

أسباب لجوء المفسرين لهذا المصطلح

بالبحث في كتب التفسير وعلوم القرآن ستجد أن العلماء أكثروا من استخدام هذا المصطلح دون الحديث عن أسرار هذا التفنن في مواضع كثيرة من كتبهم، والقول به مجرداً عن السر توجيه عام يطلق على كل من توسع في كلامه، وباستقراء ما كتب في بيان القرآن سيجد القارئ لهذه المجهودات العظيمة الأسباب التي أدت إلى اضطرار المفسرين إلى هذا المصطلح هو ما يأتي:

أولاً: القرآن كلام الله تعالى: ولما كان أعظم كلام وأبلغه خفي على البشر الكثير منه، وجعل بعض العلماء يلجؤون إلى التوجيه العام بالتفنن في ألفاظه وأساليبه، ويدل على ذلك أن الله تعالى قسم آياته إلى محكم ومتشابه، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران: ٧]، فظهر من خلال هذا التقسيم الرباني أن المحكم أصل الكتاب، والمتشابه الذي تخفى وجه الدلالة منه لا يعلم تأويله إلا من أنزله، وهذا على قول العلماء بأن الواو للاستئناف، كما يدل على ذلك قول حبر الأمه وترجمان القرآن حين قسم القرآن إلى ما يمكن معرفته وما لا سبيل للوصول إليه وذلك حين قال:" التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لاَ يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لاَ يعلمه إلا الله تعالى ذكره".[١]

ثانياً: اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني: فتجد علماء المعاجم وكتب الغريب[٢] يثبتون معنى واحداً للفظين مختلفين، مثل ألفينا ووجدنا(٣)، فيتلقف أهل التفسير هذا الكلام من كتب المعاجم ويقولون بالتفنن كما قال ابن جماعة في جوابه عن اختلاف هذه الألفاظ فقال:" (ألفينا) و (وجدنا) "

(١) جامع البيان للطبري (١/ ٧٥)

(٢) كما جاء في غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٦٨)

(٣) كما جاء في مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض (١/ ٣١)

فمعناهما واحد واختلاف لفظهما للتفنن في الفصاحة والإعجاز"[١]، ومن قبله صاحب المجاز فجعل الإلف والوجدان بمعنى واحد فقال: «أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا» أي: وجدنا".[٢]

ثالثاً: خفاء المناسبة: فتنوع الألفاظ أو الأساليب يرجع إلى حِكم جليلة استدعتها مناسبة الآية لما قبلها أو لما بعدها، فتخفى وجه المناسبة عند البعض فيلجأ للقول بالتفنن، والمناسبة علم عظيم لا يهتم به كثير من المفسرين، فقد قال صاحب البرهان مبيّناً أهميته:" وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وقال بعض الأئمة من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً، وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة".[٣]

رابعاً: تنزيه القرآن عن التكرار: فبدلاً من أن يبحث المفسر عن علة اختلاف الألفاظ أو الأساليب أو يكل علمها إلى من أنزلها تراه يلجأ لمصطلح التفنن كراهة القول بتكرار بعض الألفاظ، وذلك كما قال صاحب البحر المحيط في الإبدال بين يصنعون ويعملون:" وقد يقال: إنه غاير في ذلك لتفنن الفصاحة، ولترك تكرار اللفظ".[٤]

خامساً: مراعاة الفواصل: من المفسرين من يعلل اختلاف الأساليب القرآنية بالتفنن مراعاة لتوافق الفواصل ورؤوس الآي، وكأن الهدف من نزول القرآن الاهتمام بالألفاظ وترك المعاني، ومن ذلك ما عبّر به صاحب فتح البيان عن اختلاف الأسلوب بالفعل واسم الفاعل في قوله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: ١١] موّجهاً ذلك التغاير بقوله:" وتغيير الأسلوب فيما عبر في الأول بالفعل، وفي الثاني باسم الفاعل تفنن لرعاية الفاصلة"[٥]، وهذا عين ما يفعله الشعراء من الاهتمام أولاً وأخيراً بتحسين الألفاظ، وقد نزّه الله تعالى كلامه عن مشابهة كلام الشعراء فقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ص: ١٠٩)، وسيأتي الحديث التفصيلي عن سر هذا الإبدال في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

(٢) مجاز القرآن لأبي عُبيدة (١/ ٦٣)

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٦)

(٤) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٤/ ٣١٢) عند تفسير قوله تعالى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [المائدة: ٦٣]

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان (١٠/ ١٧٢)

بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]، وقد أغلظ ابن قتيبة القول على من حمل كلام الله تعالى على موافقة الفواصل فقط ونزّه نفسه أن يكون ممن يفعلون ذلك فقال:" وهذا من أعجب ما حُمل عليه كتاب الله ونحن نعوذ بالله من أن نَتَعسَّفَ هذا التعسُّفَ ونُجِيزَ على الله ﷻ الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية".[1]

سادساً: مخافة التطويل، والبعد عن التكلف: فيرى بعض العلماء أن الاهتمام بالبحث عن أسرار التشابه، أو البحث عن أسرار تغاير الأساليب القرآنية قد يصيب القارئ بالملل، أو أن هذا من التكلف المنهي عنه في التفسير، وذلك كما فعل صاحب الدر المصون فعلل التفنن بالجزء الأول من هذا السبب عند توجيهه لاختلاف القراءات في الفعل (يدخلون) من قوله تعالى: { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: ١٢٤] فقال:" «قرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «يُدْخَلون» هنا وفي مريم وأول غافر بضم حرف المضارعة وفتح الخاء مبنياً للمفعول، وانفردَ ابنُ كثير وأبو بكر بثانية غافر، وأبوعمرو بالتي في فاطر والباقون بفتحِ حرفِ المضارعة وضَمِّ الخاء مبنياً للفاعل، وذلك للتفنُّنِ في البلاغَةِ، وقد يظهرُ فروقٌ لا يَسَعُها هذا الكتابُ"[2]، فانظر إلى هذا المصطلح الذي تسلل حتى إلى توجيه القراءات وكأنه أسلوب عادي لمجرد الاختلاف وتنوع الألفاظ وليس بقرآن من عند الله أقرأه رسول الله ﷺ لأصحابه!

كما قال رحمه الله عن الجزء الثاني من هذا السبب بأن البحث عن هذه الأسرار من التكلف ولا سبيل إلى معرفته فقال في حكمة المغايرة بين الألفاظ:" واختلاف الألفاظ في هاتين الآيتين -أعني آية البقرة وآية المائدة -من نحو قولِه هناك: «اتبعوا» وهنا «تعالَوْا» وهناك «أَلْفَيْنا» وهنا «وجدنا» من باب التفنّن في البلاغة، فلا تُطْلَبُ له مناسبةٌ، وإن كنتُ قد تكلَّفْتُ ذلك ونقلته عن الناس في كتاب التفسير الكبير"[3] فانظر إلى هذا التناقض فبعد أن بيّن أن مثل هذا التغاير من باب التفنن، ولا سبيل إلى معرفته نراه قد تكلّف ونقل عن البعض توجيه مثل هذه الآيات، ثم أين التكلف في البحث عن الأسرار القرآنية التي تزيد القلب رسوخاً وإيماناً بهذا الكتاب وبمن أنزله وبمن نزل عليه، إضافة إلى أن هذا التكلف-كما وصفه رحمه الله-من التدبر المأمور به كل مسلم كما قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤].

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٤٠)

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٤/ ٩٧)

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٥٠)

المبحث الرابع

مصطلح التفنن بين القبول والرد

من خلال البحث في كتب التفسير حول هذا المصطلح عند العلماء نجد تردد البعض في قبوله والقول به مجرداً عن أي نكتة أو حكمة، ومنهم من يقول به فقط في توجيه بعض آيات القرآن الكريم، وهم في ذلك فريقان:

الفريق الأول: حيث يري أصحاب هذا الفريق أن التفنن لابد أن يكون له سبب، وقد تزعم هذا الفريق ابن الأثير حيث يقول:" اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا القول هو عكّاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله"(١)، وهو بذلك يرد على من تزعم الفريق الثاني وهو الإمام الزمخشري الذي يقول في نكتة الالتفات أنه وارد في القرآن وفق:" عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"(٢) فالإمام الزمخشري وإن كانت له إسهاماته الجليلة في بيان أسرار الأساليب القرآنية إلا أنه أول من جاء بهذا المصطلح وتبعه كثير من المفسرين لأجل فقط أن ذلك عادة للعرب.

وعندي أن القرآن الكريم لابد من البحث فيه أولاً عن غرض المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى ثم يُضاف إليه ما يجذب الأسماع، كما أن القرآن الكريم لم يأت فقط وفق أساليب العرب وإنما فاقهم روعة وجمالاً، ويظهر ذلك الجمال والروعة من خلال البحث عن سر هذا التفنن، أما الاكتفاء بهذا المصطلح سراً للتغاير فهذا دليل على أن المفسر لم يهتد فيه إلى وجه الصواب ؛ ولذلك لم يقبل بعض العلماء بهذا التوجيه العام ليضم إليه سر هذا التفنن كما قال الشهاب:" وان كان التفنن كافياً في مثله لكن اللائق بشأن التنزيل أن يكون له نكتة خاصة"(٣)، ومن بعده يؤكد صاحب المنار على هذا المعنى ليقول:" مخالفة المعهود في أساليب اللغة لا يكاد يقع في كلام بلغاء أهلها إلا لنكتة يقصدونها به

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/ ٣)

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (١/ ١٤)

(٣) عنايه القاضي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي (٦/ ٣٢٩)

وكلام رب البلغاء ومنطقهم باللغات أولى بذلك"[1] فالقول بالتفنن فقط دون البحث عن السر تدبر ناقص لكتاب الله تعالى.

والخلاصة: أن القرآن الكريم فاق كل الألفاظ والأساليب العربية؛ لأنه كلام رب البشر ومن علم الخلق الفصاحة والبيان، ولا يصح أن يُقارن كلامه بأي كلام، وأنه لا مانع من استخدام هذا المصطلح مقروناً بسر هذا التفنن، أمّا القول به بعيداً عن نكتته فهو توجيه عام يمكن أن يقال على أي توسع وتصرف في الكلام لأي شخص.

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥)

الفصل الثاني

الدراسة النقدية لمصطلح التفنن عند بعض المفسرين

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول: مصطلح التفنن عند الزمخشري

المبحث الثاني :مصطلح التفنن عند ابن جماعة

المبحث الثالث: مصطلح التفنن عند أبي حيان

المبحث الرابع: مصطلح التفنن عند زكريا الأنصاري

المبحث الخامس: مصطلح التفنن عند الخطيب الشربيني

المبحث السادس: مصطلح التفنن عند الألوسي

المبحث السابع: مصطلح التفنن عند الطاهر بن عاشور

المبحث الأول

مصطلح التفنن عند الزمخشري

يبدأ هذا الفصل بدراسة أقوال المفسرين حول مصطلح التفنن، وأولهم الإمام الزمخشري الذي طالما صال وجال في ميدان البلاغة القرآنية معللاً الفوارق بين الألفاظ والأساليب غير أنه في موضع واحد من كتابه لجأ لهذا المصطلح في الحديث عن ذكر ونزع حرف من حروف العطف فقال:" فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في {سَوْفَ تَعْلَمُونَ}؟ قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف".[1]

الدراسة: يشير الإمام فيما سبق إلى الحديث عن ذكر الفاء في قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام: ١٣٥] ونزعها في قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (٢/ ٤٢٤)

عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} [هود: ٩٣] ليبين أن علة الاختلاف بينهما هو التفنن، وإن كان في نظره أن الاستئناف أبلغ، وهذا التوجيه العام وإن كان هو الوحيد في كتابه إلا أنه لم يهتد إلى تعليل قوي فيه فلجأ للقول بالتفنن، إضافة إلى أنه لم يبين سر اختصاص الموضع الأبلغ بما ورد فيه، وقد رد الخطيب الإسكافي هذا التغاير إلى اختلاف القائل في الموضعين فقال ما ملخصه:" أمر الله نبيه في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد: اعملوا على طريقتكم وجِهَتكم، أو على تمكنكم فسوف تعملون، أي: اعملوا فستجزون وتعلمون إساءتكم إلى أنفسكم، فالعمل سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وأما في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب ﷺ لما تجاهل قومه عليه فقال لهم:{سَوْفَ تَعْلَمُونَ} مكان الوصف لقوله: (عامل)"[(١)]، فهو بهذا رحمه الله علل دلالة الاختلاف في ذكر الفاء إلى أنها سبب للعمل.

وفي نظري يمكن أن نجعل الفاء للترتيب والتعقيب للدلالة على سرعة وقوع ما تم الوعيد به من قبل النبي ﷺ لكونه نبي آخر الزمان وكما ورد عنه:«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»[(٢)]، ولما كان بعث نبي الله هود ﷺ بزمن بعيد عن الساعة وما فيها من وعيد اختص هذا الموضع بنزع حرف العطف.

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (٢/ ٥٥١)

(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» (٨/ ١٠٦ح ٦٥٠٤)

المبحث الثاني مصطلح التفنن عند ابن جماعة

يكاد الإمام ابن جماعة يعتبر أول من أكثر من استخدام هذا المصطلح[١] في كتابه: كشف المعاني في المتشابه المثاني، والذي خصصه لتوجيه ما تشابه من ألفاظ القرآن الكريم، ومن الأمثلة التي استخدم فيها هذا المصطلح في كتابه الإبدال بين ألفينا ووجدنا حيث يقول:" قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠]، وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤]؟ جوابه: ما (ألفينا) و(وجدنا) " فمعناهما واحد واختلاف لفظهما للتفنن في الفصاحة والإعجاز".[٢]

الدراسة: مما سبق من كلام الإمام ابن جماعة يتبين أنه استخدم مصطلح التفنن لأن ألفينا ووجدنا بمعنى واحد، واستخدم هذا المصطلح تبعاً لما ورد عن ابن عباس[٣] ﷺ في اتفاقهما من حيث المعنى، كما ورد ذلك عن أبي العالية وقتادة والربيع من التابعين[٤] إلا أن الخطيب الإسكافي فرّق بينهما فقال:" (ألفينا): يقصد بها بعض الوجوه التي يُستعمل عليها (وجدنا) ، لأنه يقال: وجدت الشيء، فلا يحتاج إلى مفعول ثان إذا وجدته عن عدم، ولوجدان الضالة تقول: وجدت الضالة وتقول: وجدت زيدا عاقلا، فيكون الوجود متعلقاً بالخبر الذي هو المفعول الثاني، فلا بد له في هذا الوجه منه، ولا يكتفي بالمفعول الأول، وأما قولهم: ألفيت، فإنها مخصوصة بهذا الوجه من وجوه وجدت، لا يقال: ألفيت درهماً بمعنى: وجدت درهماً، ولا ألفيت الضالة، فكان في الموضع الأول استعمال اللفظ الأخص أولى، وتأخير اللفظ المشترك إلى المكان الثاني أولى".[٥]

فظهر مما سبق من كلام الخطيب الإسكافي التفرقة بينهما من حيث أن (وجدنا) لفظ عام مشترك يتعدى لمفعولين، أمّا (ألفينا) لفظ خاص من خصوصيات (وجد) ويتعدى

---

(١) حيث استخدم هذا المصطلح تسع مرات في كتابه.

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ص: ١٠٩)

(٣) انظر: مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس (ص: ٨٢)

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٨١)

(٥) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (١/ ٣١١)

لمفعول واحد، وهو توجيه قائم على النحو، كما يفرّق بينهما من حيث أن (وجد) يستعمل في العثور على الضالة، ويستعمل بمعنى العلم، فأحدهما أخص من الآخر فآثر القرآن اللفظ الأخص للموضع الأول من القرآن وهي سورة البقرة، واللفظ الأعم للموضع الثاني وهي سورة المائدة، إلا أنه رحمه الله لم يبين سر اختصاص كل موضع بما ورد فيه، كما فرق بينهما ابن عرفة بقوله : " الوجدان يكون اتفاقيا على غفلة من غير قصد ومنه وجدان الضالة، «وألفينا» يقتضي وجدان ما كان ثابتاً دائماً مستقراً"(١).

وهو رحمه الله أيضاً فرّق بينهما دون سر الاختصاص كما فعل الخطيب، ولعل السر في اختصاص كل موضع بما فيه-والله أعلم-السياق المختلف في السورتين، فسورة البقرة سبقها الحديث عن تبريء المتبوعين من التابعين يوم القيامة كما قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وهو مشهد من مشاهد يوم القيامة، ثم انتقل بعد ذلك إلى التحذير من اتباع الشيطان في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]، فكان هذا تحذيراً بعد تحذير منه تعالى بعدم متابعة العاصين أو من يوسوس بذلك، لينتقل بهم إلى أشد أنواع الذم بأنهم لم يتعظوا بما ورد من التحذيرات السابقة فسجل عليهم القرآن غباءهم وسوء فهمهم لهذا التحذير بقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٧٠] وجاء فيه تعالى بلفظ (ألفينا) الدال على متابعتهم لمن سبقهم بدون تفكر أو تروي، وأنهم لم تنفعهم المواعظ السابقة على هذه الآية، وأنهم من الشاكلة التي تحدث الله عنها سابقاً.

أمّا سياق الحديث في سورة المائدة قبل لفظ (وجدنا) فقد سبقه الحديث عن نفي ما حرمه أهل الشرك من الأنعام الوارد في قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [المائدة:

(١) تفسير ابن عرفة (٢/ ٥٠١)

١٠٣] مروراً بقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤] واعتماداً على أن الوجدان يكون بغير طلب-كما سبق-فكأنهم وجدوا ضالتهم في اتباع أهوائهم في التحريم والتحليل لبعض الأطعمة، ومتابعة ما يعبده الآباء من الأصنام دون طلب منهم أو بحث بل تكفّل آباؤهم بهذا الطلب.

المبحث الثالث

مصطلح التفنن عند أبي حيان

على الرغم من اهتمام الإمام أبي حيان بتوجيه المتشابه اللفظي والتغاير بين الأساليب في كتابه البحر المحيط إلا أنه بالبحث في كتابه تبين أنه استخدم هذا المصطلح أكثر من مره [١] وهو توجيه عام تابع فيه من سبقه من المفسرين، ومن تلك المواضع ما ذكره في حكمة التقديم والتأخير بقوله:" هناك قدم الإبداء على الإخفاء، وهنا قدم الإخفاء على الإبداء، وجعل محلهما ما في الصدور، وأتى جواب الشرط قوله:{يَعْلَمْهُ اللَّهُ} وذلك من التفنن في الفصاحة".[٢]

الدراسة: يشير الإمام أبو حيان في هذا المثال إلى وجه الحكمة من تقديم الإبداء على الإخفاء الوارد في قوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]، بينما وردت سورة آل عمران بتقديم الإخفاء على الإبداء وذلك كما قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٩]، وتوجيهه بالتفنن توجيه عام لا يشفي غليل الغواص في أسرار الكلام الرباني، وقد ظهرت الحكمة في التقديم والتأخير عند ابن الزبير الغرناطي بكلام طويل ملخصه:" إبداء الشيء واخفاء خلافه في المعتقدات صفة المنافقين وبها امتيازهم من غيرهم من الكفرة، فلما نهاهم عن المرتكب الذي امتياز المنافقين كان آكد شيء وأهمه إعلامهم بانه سبحانه يعلم ما يخفون كعلمه ما يبدون، أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله وانما الخطاب فيها وفى آية الدين قبلها وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين فيما يخصهم من الأحكام فورد فيها قوله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٤] "[٣] فهو بهذا علل التقديم والتأخير باختلاف المتُحدث عنهم، فلما كان الحديث عن المنافقين قدم الإخفاء فهذه صفتهم، ولمّا اختلف الخطاب وكان للمؤمنين قدّم تعالى الإبداء.

---

(١) استخدم أبو حيان مصطلح التفنن في كتابة خمس عشرة مرة.

(٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٣/ ٩٦)

(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي (١/ ٧٢)

وعلل العلامة أبو السعود هذا الاختلاف بقوله:" تقديمُ الإبداء على الإخفاء على عكس ما في قوله ﷻ {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} [آل عمران: ٢٩] فلِما أن المعلَّق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصلُ فيها الأعمالُ البادية وأما العلمُ فتعلُّقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية، خلا أن مرتبة الإخفاءِ متقدمةٌ على مرتبة الإبداء"[(١)] فهو بهذا لم يعلل الإبداء بأنه خطاب المؤمنين كما ذكر ابن الزبير بل بيّن أن الحديث يتعلق بالمحاسبة، وهي تتعلق بالظاهر دون الخفي من الأعمال، وأضاف إلى هذا التعليل أن العلم بالخفاء أسبق من العلم بالإبداء لتقدمه بالطبع.

والأظهر عندي ما قاله أبو السعود في تقديم الإبداء في سورة البقرة لسياق الحديث عن المعاملات بين المسلمين، والمحاسبة عليها تكون على ما ظهر لا على ما خفي، وأما عن تقديم الإخفاء فإن السياق لا يستدعي ذكر المنافقين وصفاتهم، فسياق آية آل عمران يتحدث عن القدرة الإلهية التي ليس لها حد في جمع الناس ليوم القيامة، ثم قدرته تعالى في إعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء وتعاقب الليل والنهار إلى الحديث عن التحذير من موالاة الكافرين ثم الحديث عن علمه الواسع، وهذا العلم الذي لا حدود له؛ لذلك تقدم الإخفاء.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١/ ٢٧٢)

المبحث الرابع مصطلح التفنن عند زكريا الأنصاري

استخدم الإمام زكريا الأنصاري مصطلح التفنن في كتابه أكثر من مرة[١] للحديث عن توجيه المتشابه في كتابه ومن ذلك استخدامه لتوجيه بعض الألفاظ المتقاربة فقال: " قوله تعالى: { أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ } [البقرة: ١٢٥] قاله هنا بلفظ " والعَاكِفِينَ " وفي الحج بلفظ " والقَائِمِينَ " والمرادُ منها المقيمون، وغايَرَ بينهما لفظاً، جرياً على عادة العرب من تفنُّنهم في الكلام".[٢]

الدراسة: يبين الإمام رحمه الله اختلاف الألفاظ القرآنية الوارد في حديث الحج، حيث ورد العكوف في البقرة، والقيام في سورة الحج كما قال تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [البقرة: ١٢٥]، {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [الحج: ٢٦]، وبيّن رحمه الله أن علة الاختلاف بين هذه الألفاظ هي التفنن فقط، وهناك فارق كبير بين اللفظين، فالعكوف يدل على الحبس والثبوت في مكان ما، جاء في المقاييس:" (عكف) العين والكاف والفاء أصل صحيح يدل على مقابلة وحبس، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفاً، وذلك إقبالك على الشيء لا تنصرف عنه"[٣]، والقيام يدل على نصب الجسد، أو عزمه على فعل شيء ما، كما قال ابن فارس:"(قوم) القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم، وقام بمعنى العزيمة، كما يقال: قام بهذا الأمر، إذا اعتنقه، وهم يقولون في الأول: قيام حتم، وفي الآخر: قيام عزم"[٤]، ومن خلال دلالة كل لفظ ظهر الاختلاف.

ويبقى السؤال في سر اختصاص كل موضع بما جاء فيه، والسر في ذلك السياق، فلما كان الحديث في سورة البقرة يرتكز على تعلق القلوب بهذا البيت وأنه الأمان لكل مخلوق، ناسب ذلك ذكر العكوف والإقامة؛ فلا إقامة إلا بعد توفّر الأمن، أما سياق سورة الحج فتتحدث عن بيان مكان البيت وحدوده، والصلاة والقيام والركوع والسجود فيه لا يتأتى إلا بعد بيان حدوده وتوضيح مكانه.

---

(١) استخدم هذا المصطلح تسع مرات في كتابه

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري (١/ ٣٩)

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس(٤/ ١٠٨)

(٤) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٣)

المبحث الخامس مصطلح التفنن عند الخطيب الشربيني

برز مصطلح التفنن عند الخطيب الشربيني في تفسيره أربع مرات للتعبير به عن سعة القرآن الكريم في أساليبه وألفاظه، ومن تلك الألفاظ الواردة في سورة الواقعة أصحاب الميمنة، وأصحاب اليمين، فأخبر أنه ورد التغاير بينهما بقوله:" فإن قيل: ما الحكمة في ذكرهم بلفظ أصحاب الميمنة عند تقسيم الأزواج الثلاثة وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الإنعام؟ أجيب: بأن ذلك تفنن في العبارة والمعنى واحد".(١)

الدراسة: بيّن الخطيب رحمه الله أن العلة للتفرقة بين لفظي الميمنة واليمين في القرآن هي التفنن في الألفاظ، بيد أن الفخر الرازي جعل الميمنة فيه دلالة على المكان، وأن اليمين إشارة إلى موضع مبهم فقال:" الميمنة مفعلة إما بمعنى موضع اليمين كالمحكمة لموضع الحكم أي: الأرض التي فيها اليمين، وإما بمعنى موضع اليمين كالمنارة موضع النار، والمجمرة موضع الجمر، فكيفما كان الميمنة فيها دلالة على الموضع، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميز بعضهم عن بعض ويتفرقون لقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الروم: ١٤] وقال: {يَصَّدَّعُونَ} [الروم: ٤٣] فيتفرقون بالمكان فأشار في الأول إليهم بلفظ يدل على المكان، ثم عند الثواب وقع تفرقهم بأمر مبهم لا يتشاركون فيه كالمكان، فقال: وأصحاب اليمين وفيه وجوه أحدها: أصحاب اليمين الذين يأخذون بأيمانهم كتبهم ثانيها: أصحاب القوة ثالثها: أصحاب النور".(٢)

ويطيب لي في التفرقة بينهما أن أقول: القرآن يضع كل لفظ في موضعه المناسب له، ولا تتنوع الألفاظ فيه لمجرد التفنن، وتتضح التفرقة بين اليمين والميمنة من خلال ما قال صاحب المقاييس عن اللفظ الأول:" اليمين: يمين اليد، ويقال: اليمين: القوة، واليُمن: البركة"(٣)، وجاء في المحكم والمحيط:" الميمنة اليُمن وقوله تعالى: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [الواقعة: ٨] أي: أصحاب اليُمن على أنفسهم أي: كانوا ميامين على أنفسهم غير مشائيم"(٤)، ففي جانب التقسيم يجتمع كل شيء مع شبيهه ونظيره كما قال

(١) السراج المنير للخطيب الشربيني (٤/ ١٨٥)
(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٩/ ٤٠٤)
(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١٥٨)
(٤) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١٠/ ٥١٣)

تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} [الصافات: ٢٢] فالصنف الأول من هذا التقسيم هم أصحاب الميمنة الذين تواصوا فيما بينهم بالعمل الصالح فجلبوا الخير لأنفسهم، فهذا سر تسميتهم بهذا الاسم، وحينما حان وقت نعيمهم سماهم الله تعالى بأصحاب اليمين لكون هذا اللفظ يجمع في طياته عدة دلالات من الخير واليُمن والبركة والقوة، وهم كذلك يتنعمون بعدة أشياء مختلفة من ماء وفواكه وحور عين، فناسب اللفظ ما أُعد لهم من نعيم.

المبحث السادس مصطلح التفنن عند الألوسي

من العلماء الذين استخدموا مصطلح التفنن الإمام الألوسي حيث أورد رحمه الله هذا المصطلح في تفسيره أكثر من أربعين مرة، ومن ذلك قوله في الحكمة من علة ذكر اسمي العزيز والعليم في افتتاح سورة غافر حيث يقول:" لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن الجليل من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الإفهام أو هو على نحو تخصيص الوصفين فيما سبق فإن شأن البليغ علمه بالأشياء أن يكون حكيماً إلا أنه قيل الْعَلِيمِ دون الحكيم تفنناً"(١).

الدراسة: كأني بالشيخ رحمه الله يريد الربط بين افتتاح سورتي الزمر وغافر كما قال تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الزمر: ١]، وقوله تعالى: { حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [غافر: ١، ٢]، وما بينهما من وجه الاتصال مبيّناً أن البليغ هو العالم بكل شيء ولابد وأن يكون حكيماً؛ لأن سورة الزمر اختصت بالعزة والحكمة، فبيّن أن العدول من الحكيم إلى العليم من باب التفنن.

إلا أن الفخر الرازي بيّن وجه ذكر العزة والعلم لأمرين هما:" أحدهما: أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز، ولولا كونه عزيزاً عليماً لما صح ذلك، والثاني: أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزاً لا يغلب وبكونه عليماً لا يخفى عليه شيء"(٢)، فالفخر رحمه الله ربط ما بين الاسمين الجليلين وعلاقتهما بتنزيل الكتاب، وبمثله فعل صاحب التحرير والتنوير بأن ربط بينهما غير أنهما-أي العزيز والعليم-قد وردا في معرض التوبيخ لمن لم يؤمن بهذا الكتاب فقال:" وصف الله بوصفي العزيز العليم هنا تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأن الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله".(٣)

(١) روح المعاني للألوسي (١٢/ ٢٩٥)

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٧/ ٤٨٣)

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٤/ ٧٩)

وعندي أن هذا الافتتاح يتعدى التنزيل إلى ما هو أبعد من ذلك فهو وارد في موقعه المناسب موقع براعة الاستهلال من الخطبة، فهما كالمقدمة والتمهيد لما سيذكر بعد من مقتضيات وصفه تعالى بالعزة والعلم، فهو ﷻ العزيز الذي لا يُغلب حتى وإن بلغت قوى الكفر والشرك مداها كقوم نوح وعاد وثمود الوارد ذكرهم في السورة المباركة بقوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [غافر: ٥] ، وأما العليم فهو من المبالغة في العلم ومن ذلك علمه بمن يجادل في آياته تعالى في كل وقت ومكان، كقوله تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥]، وعلمه تعالى بوقت قيام الساعة ومن وجبت لهم النار من المجادلين في آياته تعالى من أهل مكة ومن سبقهم في الضلال، فالعزة والعلم ورد بهما افتتاح السورة لتوفية جميع أغراض السورة الكريمة.

المبحث السابع

مصطلح التفنن عند الطاهر بن عاشور

من العلماء الذين ذاع صيتهم في علم التفسير في العصر الحديث الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب كتاب التحرير والتنوير، ويكاد يكون الشيخ أكثر من استخدم هذا المصطلح(١)، والشيخ قد أبدع في هذا الكتاب غير أنه يلجأ للتوجيه العام في أحيان كثيرة، ومن ذلك اختصاص الحسنة بالمس، والسيئة بالإصابة الوارد في قوله تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠] فيقول رحمه الله:" زاد الله كشفاً لما في صدورهم بقوله: إن تمسسكم حسنة تسؤهم أي: تصبكم حسنة والمس الإصابة، ولا يختص أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة تفنن".(٢)

الدراسة: تبين من كلام الشيخ رحمه الله أن المس والإصابة كلاهما يُستعمل في الخير والشر، ولا يعني اختصاص كل منهما بشيء التفرقة بينهما، وإنما هو من قبيل التفنن في الألفاظ والتوسع فيها فقط، ومما دعاه لهذا القول استخدام القرآن للمس في الخير والشر والإصابة كذلك كما قال تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ١٩ – ٢١]، وقوله تعالى: {إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ } [التوبة: ٥٠]، إلا أن بعض العلماء قد حرّكت هذه التفرقة شيئاً في عقله وفكره، ومنهم ابن المنير فعلّق على كلام الزمخشري الذي لم ير بينهما أي تفرقة، فقال رحمه الله:" المس أقل تمكناً من الاصابة، وكأنه أقل درجاتها، فكأن الكلام واللَّه أعلم: إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها، وإن تمكنت الاصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال، بل يفرحون ويسرون، واللَّه أعلم"(٣)، وبنحو هذا التوجيه سبق صاحب

(١) جاء مصطلح التفنن في التحرير والتنوير أكثر من مائتي مرة.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/ ٦٨)

(٣) حاشية ابن المنير على تفسير الكشاف (١/ ٤٠٧)

المحرر الوجيز وعلل التفرقة بينهما بقوله:" ذكر تعالى «المس في الحسنة» ليبين أنه بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن"(١)، فظهر من ذلك أن المس مع خفته يدل على النعمة العظيمة من الله تعالى حتى وإن كان أمراً هيّناً في نظر البعض، والتعبير عن السيئة بالإصابة دليل على وقوعها عليهم ووصولها إليهم كمن يرمي الشيء فيصيبه.

ويبقى السؤال: ما السر في إطلاق المس على الخير كما في قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: ١٧]؟ وإطلاق الإصابة كذلك في الحسنة والمصيبة في مثل قول الله تعالى: { إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ } [التوبة: ٥٠]؟ وقبل الإجابة نستأنس بما عند أهل اللغة من بيان لهما، فقد قال صاحب المقاييس:" (مس) الميم والسين أصل صحيح واحد يدل على جس الشيء باليد، ومسسته أمسه، وربما قالوا: مسست أمس، والممسوس: الذي به مس، كأن الجن مسته، والمسوس من الماء: ما نالته الأيدي"(٢)، وقال رحمه الله عن المصيبة التي يرجع أصلها إلى الصوب:" (صوب) الصاد والواو والباء أصل صحيح يدل على نزول شيء واستقراره، من ذلك الصواب في القول والفعل، كأنه أمر نازل مستقر "(٣)، وبالتأمل فيما سبق من دلالة هذين اللفظين تبين لي أن المس فيه دلالة على القرب، والمصيبة من (صوب) التي تدل على النزول والاستقرار، وبناء على هذه الدلالة فالآية الأولى معناها: إذا اقترب منك الضر فلا مانع له ولا كاشف له إلا الله تعالى، وإن قرب منك خير فهو القادر تعالى على إيصاله إليك، والآية الثانية معناها: إن استقر بك خير يغمهم ذلك، وإن استقر بك شر ومصيبة يعرضوا عنك وهم مسرورون بما حل بك وبما نزل بك.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (١/ ٤٩٨)

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٧١)

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣١٧)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تغفر الخطايا والزلات، والصلاة والسلام على من به خُتمت الرسالات، وعلى آله وصحبه أهل السبق في عمل الصالحات، وبعد، فمن خلال البحث في هذا المصطلح ودراسة أقوال المفسرين عنه تبين لي ما يلي:

أولاً: التفنن مصطلح ورد في كتب التفسير يدور معناه حول خروج الألفاظ والأساليب على عدة أنواع للدلالة على تمكن المتحدث من اللغة.

ثانياً: التفنن في القرآن الكريم تتنوع ألفاظه وأساليبه تنوعاً يصعب حصرها.

ثالثاً: أهم الأسباب التي أدت للجوء لهذا المصلح هو أن القرآن كلام الله تعالى، وأن العقول والأفهام مهما بلغت وأوتيت من علم لا تحيط بكل أسراره ومعانيه؛ ولذلك وجد في الكتاب الواحد في التفسير بيان هذا التفنن في مواضع، والقول به فقط اعتماداً على أنه من أساليب العرب في مواضع أخرى في نفس الكتاب.

رابعاً: تناقل هذا المصطلح وكثرته في كتب التفسير فيه دلالة واضحة على قبوله بين كثير من المفسرين، وارتضائهم به لتوجيه بعض الآيات القرآنية، وأول من استخدمه الإمام الزمخشري، والإمام الطاهر بن عاشور أكثرهم استخداماً له.

خامساً: عدم قبول بعض المفسرين لهذا المصطلح والقول به علة لما ورد في القرآن، بل لابد من البحث عن أسبابه، وهو الأولى لكمال التدبر.

سادساً: لا مانع من استخدام هذا المصطلح مقروناً ببيان سر اختلاف الألفاظ والتراكيب.

سابعاً: كل لفظ في القرآن الكريم جاء في مكانه المناسب.

ثامناً: القول بالتفنن فقط هو حيلة العاجز.

تاسعاً:القرآن الكريم قد ورد على أساليب لغة العرب، غير أنه فاقها جمالاً ورونقاً.

كما يوصي الباحث بدراسة كل مفسر على حدة، وحصر كل ما قاله حول هذا المصطلح، وضرورة مراجعة كتب التراث التفسيري ونقد ما بها من مصطلحات، والبحث عن مصطلحات جديدة قد تخفى على البعض ودراسة ما يتعلق بها.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين...

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم جل من أنزله.

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت

٢) إعراب القرآن علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري –القاهرة ودار الكتب اللبنانية –بيروت –القاهرة / بيروت، ط: الرابعة –١٤٢٠ هـ

٣) أمالي ابن الحاجب، المؤلف: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبوعمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار –الأردن، دار الجيل – بيروت، ١٤٠٩ هـ –١٩٨٩ م

٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، المؤلف: زين الدين أبوعبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: د. عبد الرحمن ابن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، ط: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م

٥) الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، المحقق: محمد عبدالمنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، ط: الثالثة.

٦) البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، ط: ١٤٢٠

٧) البديع في البديع لابن المعتز المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، الناشر: دار الجيل، ط: الأولى ١٤١٠هـ –١٩٩٠م

٨) البرهان في علوم القرآن المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـ –١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه

٩) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، المؤلف: عبدالعظيم ابن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة –المجلس الأعلى للشئون الإسلامية –لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٠) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ

١١) تفسير الإمام ابن عرفة، المؤلف: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله، المحقق: حسن المناعي، الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية، ط: الأولى، ١٩٨٦ م

١٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن منده علي خليفة القلموني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م

١٣) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط: الثالثة –١٤١٩هـ

١٤) جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ –٢٠٠٠ م

١٥) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ

١٦) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد ابن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق

١٧) درة التنزيل وغرة التأويل المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، ط: الأولى، ١٤٢٢ هـ –٢٠٠١ م

١٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ

١٩) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ.

٢٠) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م

٢١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المؤلف: أحمد بن علي بن عبدالكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٣ م

٢٢) عنايه القاضي وكفاية الراضي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، المؤلف: شهاب الدين أحمد ابن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار النشر: دار صادر –بيروت

٢٣) غريب القرآن المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ -١٩٧٨ م

٢٤) غريب القرآن في شعر العرب ((مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس ﷺ))، المؤلف: عن الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس

٢٥) فتح البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، قدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنَّشْر، صَيدَا –بَيروت، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م

٢٦) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، المؤلف: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٠٣ هـ -١٩٨٣ م

٢٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة -١٤٠٧ هـ، ومذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعى

٢٨) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم ابن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء - المنصورة، ط: الأولى، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م

٢٩) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر –بيروت، ١٤٢٠هـ

٣٠) مجاز القرآن المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري، المحقق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، ط: ١٣٨١ هـ.

٣١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحقق: عبد السلام عبدالشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى –١٤٢٢ هـ

٣٢) المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ –٢٠٠٠ م

٣٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة، الناشر: مكتبه السنة – القاهرة، ط: الثانية، ١٤٢٣ هـ –٢٠٠٣ م

٣٤) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث

٣٥) معترك الأقران في إعجاز القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ –١٩٨٨ م

٣٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، ط: الأولى، ٢٠١٠ م.

٣٧) مفاتيح التفسير للأستاذ الدكتور/ أحمد سعد الخطيب، الناشر: دار التدمرية، الرياض، ط: الأولى ٢٠١٠م.

٣٨) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن ابن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الثالثة –١٤٢٠ هـ

٣٩) مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبوالحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م.

٤٠) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان

٤١) مناهج البحث العلمي للدكتور/ محمد سرحان، الناشر: دار الكتب، صنعاء، ط: الثالثة ٢٠١٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد :معنى التفنن	٨
الفصل الأول : الدراسة النظرية لمصطلح التفنن ، ويشتمل على أربعة مباحث :	١٠
المبحث الأول : أنواع التفنن	١٠
المبحث الثاني : أسباب وقوع التفنن في القرآن	١٢
المبحث الثالث :أسباب لجوء المفسرين لهذا المصطلح	١٣
المبحث الرابع: مصطلح التفنن بين القبول والرد	١٦
الفصل الثاني : الدراسة النقدية لمصطلح التفنن عند بعض المفسرين ويشتمل على سبعة مباحث:	١٨
المبحث الأول: مصطلح التفنن عند الزمخشري	١٨
المبحث الثاني :مصطلح التفنن عند ابن جماعة	٢٠
المبحث الثالث: مصطلح التفنن عند أبي حيان	٢٣
المبحث الرابع: مصطلح التفنن عند زكريا الأنصاري	٢٥
المبحث الخامس: مصطلح التفنن عند الخطيب الشربيني	٢٦
المبحث السادس: مصطلح التفنن عند الألوسي	٢٨
المبحث السابع: مصطلح التفنن عند الطاهر بن عاشور	٣٠
الخاتمة	٣٢
المصادر والمراجع	٣٣
فهرس الموضوعات	٣٧